جوته

١٨٣٢ – ١٧٤٩

JOHANN WOLFGANG VON GOETHE

للدكتور محمد عوض محمد

الاستاذ بكلية الآداب ومعرب فوست

اليوم يحتفل الناس بذكرى جوته ، ولا نرى الاحتفال بذكراه قاصراً على المانيا ، بل قد تجاوزها إلى غيرها من اقطار العالم ، فلقد كانت روح جوته روحاً عالمية ، وكانت نظراته متجهة أبداً الى العالم بأسره ، لاتبالي ما اختلاف المكان والزمان ، وتستمد روحه الوحي من حضارة الشرق والغرب ، ومن الثقافات القديمة والحديثة ، وكان أكبر أركان الايمان في نفس جوته هو وحدة العالم من غير تقيّد بموضع أو زمن

ولقد نقف اليوم هنيهة لنذكر جوته وآثاره ، ونستعرض في خيالنا مؤلفاته وأعماله ، ثم نتساءل أيها أجل شأنا وأعظم خطراً : أأشعاره الغنائية ، أم قصصه ورواياته ، أم كتاب فاوست الأول والثاني ، أم رسائله وأبحاثه العلمية ، أم أعماله الادارية كوزير في فيمار ... لقد كتب جوته أشعاراً غنائية لايعادلها في عذوبة اللفظ ودقة المعنى أشعار . وكتب قصصاً مسرحية ان لم تبلغ مستوى شكسبير ، فانها لم تقصر عنه كثيراً . وكتب مؤلفه الهائل فوست الذي يشغل في الأدب العالمي مكاناً فذاً . وكتب «ديوان الشرق والغرب» فجمع بين روح الحضارتين الشرقية والغربية ، ثم ان له بعد هذا كله أبحاثاً علمية قيمة واستكشافات خطيرة . وكانت ادارته للأعمال التي اضطلع بها وهو وزير فيمار إدارة حازمة موفقة . ولكن أكبر أثر خلّفه جوته هو سيرته وحياته . لا كتبه ومؤلفاته . وقد عبّر مرك Merck عن هذا المعنى فقال ان الحياة التي عاشها جوته أبدع من الاشعار التي كتبها .. فالقارىء الذي يريد أن يطالع أجل آثار جوته وأعظمها يجب أن يدرس حياته من مبتداها الى منتهاها .. وللأسف لا يسمح المقام هنا بالالمام بهذه السيرة الحافلة الا إلماماً يسيراً .. دون الاشارة الى كتبه ومؤلفاته إلا عرضاً

* * *

ولد يوهان فولفجانج جوته في اليوم الثامن والعشرين من مارس سنة ١٧٤٩ ، في مدينة فرانكفورت على المين . وهي من أقدم المدن الالمانية ومركز عظيم للتجارة والمال . وبالرغم من ان والده من ذوي اليسار ، فان الاسرة لم تكن تمت إلى أصل أرستقراطي . فقد كان جده

حائكاً نزل بمدينة فرانكفورت ، وزاول فيها مهنته ، حتى جاءه الطالع السعيد في صورة زوجة نصف تملك فندقاً يدرُّ عليها رزقاً حسناً . فانقلب الحائك الماهر الى مدير فندق ، ومن هذه الزوجة وُلِدَ له ولدان ، أصغرهما يوهان كاسپار جوته وهو والد الشاعر

اذاً فان جد جوته كان حائكاً ، في وقت كانت الحياكة معدودة من أحقر المهن . ومن لطيف المصادفات أن تكون هذه المهنة قد انجبت لالمانيا اثنين من أكبر رجالها . أولهما شاعرنا والثاني الرئيس إيبرت أول رئيس للجمهورية الالمانية ، الذي كان يدير دفتها في أشد الاوقات في تاريخها حرجاً . ومن الملهم أن نذكر هذه الحقيقة ، أي أن جوته من أصل وضيع لانها تفسر لنا أن طبقة الاشراف في ڤيمار لم تكن راضية عن الحظوة التي نالها الشاعر لدى دوق ڤيمار . ولم تزل مصرة على عدم رضاها عن هـذا الدخيل حتى منح الزائدة المعروفة von فصار الشاعر يدعى von Goethe

أما والد جوته فقد تَعَمَّدَ أبواه أن يحسنا تأديبه وتثقيفه حتى يستطيع أن يعوض في ناحية التعلم ما كان يعوزه من ناحية الوراثة . وقد درس الحقوق والشريعة ونجح في دراسته النجاح كله . ثم لم يزل يرتقي في السلم الاجتماعي حتى أصبح يعدُّ من أرقى الطبقة الوسطى في فرانكفورت ، واستطاع أن يتزوج من أسرة شريفة . وقد تم هذا الزواج عام ١٧٤٨ ، وكان شاعرنا أول ثمرة من ثمراته

نستخلص من هذا كله ان جوته قد ولد وسط شيء كثير من الرخاء واليسار . حقيقةً ان أباه لم يكن من كبار ذوي المال . ولكنه كان في رخاء جعله دائماً بعيداً عن الحاجة ، فعاش الشاعر حياته الطويلة لم يعرف الفقر يوماً ولم يمارس الشدة .. واذا كانت هذه الشدة مُعَلِّماً لابدَّ منه للنبوغ ، فان جوته قد حرم هذا التعليم ، ولكننا نبحث عن أثر هذا الحرمان في حياته وأشعاره فلا نجد له أثراً .. فلقد كان محسناً يكتم إحسانه ، وكان شديد الألم لما قد ينزل بغيره من المحن والشدائد ، وفي أشعاره في غير موضع رنات حزن عميق ومواقف تستدرُّ الدمع . فان طبعه الحساس أغناه عن تجربة الشقاء تجربة فعلية

كذلك من الغريب أن هذا الفتى ، ربيب الغنى ، وأليف النعمة ، القادر على أن يعيش عيش النعومة والرخاء ، قضى حياته في جد ودأب ، يعمل بهمة لا تعرف السآمة ، وهو أغنى الناس عن الدأب والسعي .. تلك أيضاً ظاهرة قد تبدو غريبة في الشخصيات المألوفة ، ولكن ليس فيها غرابة في شخص تدفعه روحه أبداً الى العمل وفي صدره شهوة الى الجد والسعي أقوى من شهوة النهم الى الطعام والشراب فكان طول حياته يرهق نفسه بالعمل حبّاً في هذا الارهاق لا من أجل ثمرة يجنيها ، أو فائدة يستفيدها ، بل كان دينه الذي يدين به السعي من أجل لذة السعي ، والدأب حبّاً في الدأب

على أن سعة العيش التي نشأ فيها جوته قد كان لها أثرها الطيب في حياته . فقد لقي وهو صبي كل عناية ورعاية ، وتلقى دروسه الأولى في منزل أبيه حيث لقنه المعلمون اللغات اللاتينية واليونانية والايطالية والفرنسية ، وهذا كله تحت اشراف والده .. وقد ألف الناس أن يسمعوا أن طفولة النوابغ من الرجال كانت طفولة عادية ، لا تنم عن ما سيئول اليه الطفل فيما بعد من العظمة والنبوغ . ولكن جوته من غير شك قد خرج على هذه القاعدة — على فرض أنها قاعدة — فقد كان طفلاً نابغاً استطاع أن يكتب أربع لغات أجنبية عدا لغته الأصلية ولم يتجاوز الثامنة من عمره . وكان في التاسعة يكتب قصصاً صغيرة ليسلي بها أخاه الصغير يعقوب ولما بلغ العاشرة احتلت فرانكفورت جنود فرنسية ، وأنشىء فيها مسرح تمثل فيه الروايات الفرنسية . وكان جوته يختلف الى هذا المسرح وانتهى به الاعجاب بالروايات الفرنسية الى دراسة الأدب الفرنسي دراسة مطولة ، والى كتابة قطعة ضعيفة خيل اليه أنها تشابه تلك التآليف المسرحية

انجلى الفرنسيون عن فرانكفورت في سنة ١٧٦١ وعاد جوته الى الدراسة المنتظمة في دار أبيه . وأخذ يتلقى دروساً في الرياضة والموسيقى والرسم . فأما الرياضة فلم يستطع أن يسير فيها خطوة ، وكذا لم يستطع أن يتقن الموسيقى رغم ما بذله في سبيل ذلك من جهود . وأما الرسم فقد تقدم فيه خطوات حسنة وبقي طول حياته يمارسه من آن لآن ، ولا تزال آثاره في هذا باقية محفوظة ، وإن لم تصل الى مرتبة عالية من الاتقان . وكذلك عاد الى دراسة اللغات فتعلم الانكليزية . وكان في مدينة فرانكفورت عددٌ عظيم من اليهود لهم لهجتهم الخاصة فحاول جوته أن يتعلمها ، وهي لهجة تشتمل على مزيج من اللغة الالمانية المحرفة واللغة العبرية . فألح جوته على والده أن يساعده على تعلم العبرية فسمح ابوه بذلك فقطع في دراستها شوطاً حسناً بحيث استطاع ان يدرس التوراة باللغة الاصلية . وقد تركت هذه الدراسة أثراً عميقاً في نفسه

كان في طبع جوته ناحية تختلف تماماً عما ألفنا أن نراه أو نسمعه عن الألمان . فان الخلق الالماني مشهور بأنه ميّال الى الجلد والصبر ، والتعمق في دراسة ناحية واحدة من النواحي العلمية أو العملية ، والانقطاع الى فهم موضوع واحد ؛ ولهذا كان التخصص من الميزات الكبرى للالمان . فيحصر الرجل منهم نفسه في دائرة محدودة يقتلها بحثاً واستقصاء ، حتى يكون له فيها الكلمة العليا والرأي السديد . والى هذا الطبع يرجع الفضل في نبوغ الألمان في مختلف نواحي الحياة .. كان في طبع جوته على العكس شيء كثير من القلق ، يأبى عليه الاستقرار على شرعة واحدة ينهل منها ، ومورد واحد يعكف عليه . كان طبعه القلق يدفعه أبداً الى ورود مناهل جديدة والى وجهة أخرى تتجه اليها نفسه الحائرة وقلبه الهائم ثم لا يكاد يتجه هذا الاتجاه الجديد حتى يتركه الى غيره . وهذا كان ديدنه طول عمره . ولهذا قلما انقطع الى مؤلف واحد إلا زمناً يسيراً ، ثم يتركه ويأخذ في معالجة غيره ثم يترك الادب والشعر فجأة وينصرف الى العلوم

الطبيعية أو اللهو واللعب والملذات ولهذا كله نرى أن مؤلفات جوته اما أن تكون قصيرة كتبها وفرغ منها في زمن وجيز ، أو كتب طويلة قضى في كتابتها سنين عديدة يتركها ثم يعود اليها أو تظل (Fragments) ابتدأها ثم تركها دون أن يعود اليها

ورغبة جوته هذه في الانصراف الى أمر جديد قد كان من آثارها معالجته موضوعات كثيرة سواء أثناء تعليمه في منزل أبيه أو دراسته في الجامعة أو في الحياة نفسها ، ولقد يرى بعض الناس أن جوته لو قصر همه على الشعر وحده أو الادب وحده لنبغ فيه نبوغاً أجلى وأسمى مما وصل اليه فعلاً .. وهذا القول له وجاهته. على أن من أكبر مميزات شعر جوته أنه يتناول نواحي شتى من الحياة وكان من المستحيل عليه اخراج هذه الصور المتعددة لولا ان عبقريته متعددة النواحي مختلفة المشارب

* * *

نعود الى سيرة شاعرنا . فقد أخذ يكتب الشعر بشكل جدي وهو في الرابعة عشرة ، وفي تلك السن بدأت الحلقة الاولى من صلاته الغرامية وكان غرامه بفتاة طاهرة صالحة ذات قلب مملوء تقوى وايماناً قد تركت في نفسه أثراً حسناً . وفي شهر اكتوبر سنة ١٧٦٥ أرسله أبوه الى ليبتسك ليدرس في جامعتها وهو بعد فتى في السادسة عشرة من عمره . وصل الى هذه البلدة وصدره ملتهب شوقاً لتعرف جميع نواحي الحياة . وقلبه تواق لورود مناهل العلم . وجيبه ممتلىء بما يحتاج اليه من مال ، بل وبأكثر مما تدعو اليه الحاجة . وكانت هذه المرة الاولى التي استنشق فيها نسيم الحرية بملء رئتيه . ولم تكن الرقابة الوالدية في وطنه فرانكفورت رقابة شديدة ولا قاسية . ولكن الحرية التي وجدها في ليبتسك حرية كاملة لا تشوبها شائبة ، فأخذ يمرح في بحبوحتها ماشاء له المرح والصبي

وكان والده مصراً على أن يدرس ولده القانون قبل كل شيء وأن يحرز في دراسة القانون تفوقاً ، وله بعد هذا أن يجول جولاته في أية دراسة أخرى . فحين وصل جوته الى ليبتسك قابل أستاذ القانون وتلقى منه النصائح التي يجود بها الأساتذة في مثل تلك المواقف . ولكن الفتى جوته قال لاستاذه في شيء من الحياء انه مولع بالأدب واستأذنه في أن يسمح له بارواء غليله هذا بدلاً من الانصراف التام الى القانون ، غير أن الاستاذ أفهمه أن الأدب شيء تافه يجب ألا يأبه له طالب جاد في دراسته . وقد حاول جوته اولاً أن يخلص في التفرغ للدرس ، فكان في الفترة الاولى مقبلاً على المحاضرات التي أوجبتها عليه دراسة القانون . غير أنه مالبث ان ادركه السأم وفترت همته وعاد لا يواظب على الدرس . ولعل تجاربه هذه هي التي أملت عليه فيما بعد ذلك الحوار البديع بين الطالب وابليس كما يراه القارىء في كتاب فوست

لم يثبت جوته أن انصرف عن دراسة القانون الى دراسات أخرى استطابها ، وأضاف الى

حبه للأدب غراماً جديداً بالتاريخ الطبيعي والطب . وقد ظهر ولعه بهما فيما بعد بأجلى مظاهره . على أن جامعة ليبتسك لم تحظ من جوته الا بشطر يسير من زمنه ، وأما الشطر الأكبر فكان يصرفه في معهد الفنون الجميلة حيناً . وفي اجتياز سبل الحياة المختلفة خيرها وشرها ، وفي التشبيب بأبنة صاحب الفندق الذي كان يتناول فيه طعامه واسمها أنيت شونكوبف (Anent Schoenkopf) وفي كتابة الاشعار والقطع التمثيلية . ففي أيام ليبتسك هذه نظم روايتين : Die Laune des Verliebten (مزاج العاشق) و Die Mitschuldigeu (زملاء في الجريمة) وهاتان القطعتان هما أقدم شيء لدينا عما كتبه جوته . لأن كل ما كتبه قبل ذلك فقد . . وأكثره حرقه هو بيديه . ولهاتين القطعتين منزلة خاصة في حياة الشاعر اذ نرى منهما الى أي علو قد حلق طائر شعره وهو بعد فتى في السابعة عشرة من عمره

وفي صيف سنة ١٧٦٨ أصاب جوته مرض شديد اضطره الى أن يعود الى فرانكفورت بعد أن قضى في ليبتسك ثلاثة أعوام أحرز فيها الشيء الكثير من تجارب الحياة ، والشيء القليل من الدراسة الجامعية . دام مرضه هذا زمناً فلم يتم شفاؤه إلا في أوائل سنة ١٧٧٠ ، وعندها رأى والده أن قد آن له أن يعود الى دراسة القانون دراسة جدية ، وان يعكف على هذه الدراسة حتى يحصل فيها شهادة عالية ولعل هذا الاصرار من جانب الوالد على ان يتعلم جوته القانون مع قلة رغبته فيه هو الامر الوحيد في تربية جوته الذي يصح أن يكون موضعاً للنقد . ولكن يجب ألا ننسى أن الوالد مع اعجابه بأشعار ولده أراد أن يعده لمناصب الحكم قبل كل شيء ولهذا كانت الدراسة القانونية واجبة . ففي شهر ابريل من تلك السنة أرسل الفتى وقد جاوز العشرين إلى الجامعة مرة أخرى . وفي هذه المرة اختار له أبوه جامعة ستراسبورج . وقد أوجدته الصدفة وسط جماعة من طلبة الطب والعلوم . فأثار حديثهم كامن رغباته في دراسة المباحث المتعلقة بهذه العلوم . ورغم مثابرته على دراسة الحقوق كان يصرف جزءاً عظيما من وقته في دراسة التشريح والنبات والكيميا . . . وبالطبع لم يلس نصيبه من دراسة الأدب . وهكذا نرى جوته في درسه شأنه في جميع أطوار حياته ، لاينقطع الى دراسة واحدة ، ولايصبر على طعام واحد . وإن تعجب فعجبنا من فتى يجد من وقته متسعاً لكل هذه الدراسات المتباينة ، التي استطاع أن يضرب فيها جميعاً بسهم ، ويبلغ في كثير منها مرتبة حسنة وهو مع هذا كله لايعدم وقتاً يقضيه لدى معلم الرقص ليتقن هذا الفن من جهة ، وليشبب بابنتي المعلم في الوقت نفسه .

وللمدة التي قضاها جوته في ستراسبورج شأن خاص في سيرته فهنا استطاع بعد لأي ، أن يحصل على شهادة دكتور في الحقوق أو شهادة تقرب منها ، وامكنه بهذا أن يقر عين والده وينزع من عاتقه عبئاً ثقيلاً . وفي ستراسبورج التقى جوته بهردر « Herder » ولازمه ملازمة

التلميذ المخلص . وكان هردر قد اشتهر بمؤلفات في أصول الأدب وأخذ يبث في جوته تعاليمه التي يدين بها ، وتنحصر هذه الجهود في توجيه جوته نحو الأدب القومي والشعر القومي ، كما يبدو في التوراة وأشعار هوميروس وأوسيان وشاكسبير وأراه أن أول واجب على الشاعر الألماني أن يلتمس الالهام من الروح الجرمانية ممثلة في تاريخ ألمانيا . وفي الميثولوجيا التيوتونية . وكان جوته مستعداً لهذه الآراء ، لأنه قد تأثر حتى من قبل التقائه بهردر بتلك الروح القومية وكان مصدر هذا التأثير دراسته لفن البناء القوطي ، مُمَثَّلاً أبدع تمثيل في كاتدرائية ستراسبورج فقد كان يتأمل هذا البناء الشامخ طويلاً ، ويمعن في التأمل فيه ، حتى انتهى الى تفضيل الفن الجرماني في البناء على الفن اليوناني واللاتيني . وقد يعجب القارىء المصري من أن شاعراً عظيماً يتأثر فكره بتأمله لبناء من الابنية وقد يصعب علينا أن نتصور أن أحد شعرائنا قد يتأثر اذا أطال التأمل في مسجد السلطان حسن أو الهرم الأكبر ، ومع ذلك فقد كان لدراسة الفن القوطي مُمَثَّلاً في بناء تلك الكنيسة أثرٌ عظيمٌ في تفكير جوته . وقد ترتب على هذا كله قيام نهضة في ألمانيا جرمانية الصبغة تنفر كل النفور من القيود الثقيلة التي مبعثها الاعجاب بالأدب القديم ، والفن القديم . وهذه الحركة هي التي أطلق عليها اسم Sturm und Drang وهما لفظان تصعب ترجمتهما . ومعناها بالتقريب «الثوران والاندفاع» . اذاً فان من أكبر ثمار المدة التي قضاها في ستراسبورج ، ان بعثت في جوته هذه الروح الجرمانية التي نرى أثرها فيما بعد في روايته المسرحية الجليلة جوتس Goetz .

كذلك في اثناء دراسته في ستراسبورج تعرف جوته بأسرة رجل قسيس من خيار الناس يسكن قرية صغيرة قريبة من المدينة اسمها سيزنهايم Sesenheim ولم يكد يعود مرة اخرى الى زيارة تلك الأسرة حتى شغفته فريدريكا بريون ابنة القسيس حباً . . في تلك الآونة كانت علاقاته بعلم الرقص وابنتي المعلم قد انتهت . وكان قلبه فارغاً من كل علاقة غرامية . فلم يكن بد من ان يهيم بتلك الفتاة الطاهرة ، وتحول الهيام سريعاً الى التفكير في الزواج ، وحين وصل الامر الى هذه الغاية التي لا بد أن ينتهي اليها ، اذا الصلة قد انقطعت ، والتقدم السريع قد انقلب الى تقهقر بانتظام . هذه الظاهرة : التردد في التقيد بقيود الزواج سنراها المرة بعد المرة في حياة جوته ولهذا يحسن بنا ان نقف قليلاً لنلخصها هنا :

الحقيقة ان جوته لم يكن في يوم من الايام عاشقاً متيماً . حقيقةً انه كانت تبدو عليه كل علائم العشق المبرح ، فكان يكثر من الزيارة الى سيزنهايم ، ويقضي الساعات الطوال في منزل فردريكا ، وتظهر عواطفه في اشعار بديعة لا يشك قارئها في ان قد أثارها الحب الصحيح الخالص من كل شائبة ، ولكنا نراه حين يبلغ الامر الى نتيجته الطبيعية وحين توشك شجرة الحب ان تؤتي ثمرها ، يصوب نحوها رياح جفاء وابتعاد لا تلبث ان تذويها وتقتلها . والحقيقة التي

لا مناص من استنباطها ان جوته لم يكن يحب حبّاً مبرحاً . بل كان يحب ان يرى نفسه محبّاً متيماً او مغرماً بأن يرى نفسه مغرماً . فاذا جاءت الساعة العصيبة تذكر ان قيد الزواج قد يعوقه عن المعالي . وان تجارب الحياة المقبلة قد تهديه الى علاقة خير من هذه العلاقة . فيتفض في البعد شفاء من جراحه . فلا يلبث البعد والشباب والفن واللهو ان تنسيه لوعته وتشفيه من كل سقم . وهكذا كان. وعاد في اغسطس سنة ۱۷۷۱ الى وطنه فرانكفورت ، وهو الآن الدكتور فولفجانج جوته المحامي الناشئ.

وعقب وصوله الى موطنه اخذ يشتغل بجد في رواية « جوتس » . وانتهى من كتابتها في اوائل العام التالي . هذه الرواية المسرحية التي اثارت ضجة كبرى عند ما نشرت في سنة ۱۷۷۳ قد تبدو لنا اليوم اقل من مستوى الشاعر الذي كتب فوست ووطلهلم مايستر. ولكنهُ كتبها وهو في الثالثة والعشرين ، واخرجها في طراز جديد أثار اهتمام الامة الالمانية . وقد تعمد ان يسبغ على هذه الرواية الثوب الجرماني ويبث فيها روح الثورة على التقاليد القديمة، والوحدات الكلاسيكية المعلومة . ولهذا كان لها صدًى عظيم في عالم الادب . ونحن قد نتوهم اليوم انهُ من العجيب ان تحدث ضجة في المانيا لأن شاعراً من شعرائها اراد ان تسود الروح الجرمانية ، وجاهد مجاهدة الابطال في هذا السبيل . هذا يبدو غريباً لأول وهلة . ولكن لنذكر ان ملك بروسيا فردريك الاكبر المعاصر لجوته كان يحتقر الادب الجرماني والفن الجرماني ، ولا يتكلم في بلاطه بغير اللغة الفرنسية ولا يسود في بيئته غير الادب الفرنسي . فاذا كان الناس على دين ملوكهم فأي جهاد هائل كان محتماً على امثال جوته وشيلر حتى يبثوا الروح الجرمانية في الادب الالماني ؟

لم ينشر كتاب جوتس للناس الا عام ۱۷۷۳ . وقبل ذلك بسنة ذهب جوته الى وتسلار وهي مقر محكمة الاستئناف العليا ، للتمرن على الاعمال القضائية . وهذا الجزء من حياة جوته معروف لقارئ المصري فلا حاجة للاطالة فيه . فهناك تعرف جوته بكستنر خطيب شرلوت بوف وهام بهذه الخطيبة اشد الهيام ، وما كان هيامه بها شديداً الى هذا الحد إلاّ لأنها مخطوبة بعيدة المنال . ولو كانت حرةً وقبلت الزواج منهُ لولّى الادبار ، ولاذ بالفرار ، كما فرّ من فردريكا بريون من قبل وكما فرّ من ليلي شوغان من بعد

وعاد بعد شهور الى فرانكفورت وأخرج في عام ۱۷۷٤ ثمرة عشقه لشرلوت بوف : وهذه الثمرة هي كتاب « آلام فرتر » الذي يعرفهُ الجميع والذي بلغ في سرعة الذيوع والانتشار ما لم يبلغهُ كتاب آخر لجوته، ولو ان حماسة الناس قد فترت بعد ذلك ، واصبح كتاب « فرتر » وليس له ذلك المقام الكبير في الادب الالماني . على ان اثره في حياة الشاعر كان عظيماً فقد ذاع به صيته وحلقت رايته في سماء الشهرة وكان لهذا شأنهُ في حياة الشاعر بعد ذلك

من النواحي الطيبة في اخلاق جوته انهُ كان يتلمس الهداية ابداً على يد المرشدين الذين يسوقه حظه الى صحبتهم . وقد وفقه طالعه الحسن الى صحبة ثلاثة رجال في فترات مختلفة في حياته ، وهؤلاء الثلاثة هم هردر ومرك وشلر . وقد سبق لنا ان ذكرنا مقابلته لهردر في ستراسبورج وأما شلر فسنعود الى ذكره فيما بعد ، أما مرك هذا فرجل اديب ناقد من النوع الذي يُشْحَذُ ولا يكاد يقطع ! وكان له اتصال متين بكثير من كبار الكتّاب والشعراء ، وكانت نصائحه لهم عامة ولجوته خاصة باعثة على زيادة الانتاج واحسانه . وقد تعرف اليه جوته عقب عودته من ستراسبورج وكانت بينهما مودة متينة ولو انها فترت قليلاً فيما بعد

كان هردر ومرك كلاهما اكبر من جوته سناً . ونظراً لانقطاعهما الى دراسة النقد الأدبي ، كانا من غير شك اعلم منه بهذا الموضوع . وكانا يبذلان له النصح في شيء من غطرسة المعلم ، وكان يقبل هذا كله منهما رغم ما جبل عليهِ من الكبرياء والغرور . وكان يتقبله احياناً بشيء من الغضب واحياناً لا يذعن اليه . ولكن لا شك في ان رغبته في تثقيف نفسه من جهة وحبه لهما من جهة اخرى ، واخلاصهما له من ناحية ثالثة . كل هذا جعله ينتفع بما يذلاه لهُ من النصائح

بعد ان اخرج جوته كتاب فرتر بزمن يسير ساقه القدر وهو في فرانكفورت الى صداقة فتاة في السادسة عشرة من عمرها اسمها انا شونمان Anna Schonemann وأطلق هو عليها اسم ليلي Lili . وهي ابنة رجل من ذوي اليسار ومن كبار اصحاب المصارف في فرانكفورت . ولا نريد ان نطيل شرح علاقة جوته بليلي ، فحسبنا ان نذكر انها كانت تكراراً لما حدث له مع فردريكا ولو انهُ في هذه المرة قد اضاف عنصراً جديداً وهو الخطبة الرسمية التي تمت رغم معارضة اهل الخطيبة والخطيب ، ولكن هذا العنصر الجديد لم يغير كثيراً من سير القصة سيرتها الاولى . فقد احجم جوته في الساعة الاخيرة ثم سافر في رحلة يصحبه الاخوان المستهتران ستولبرج الى سويسره . وهو يزعم انهُ سافر ليرى هل يستطيع الصبر على فراقها . وعاد من سفره وقد خمدت الجذوة المستعرة وهان عليهِ فسخ الخطبة

* * *

في عام ١٧٧٥ كان جوته قد بلغ السنة والعشرين ، وقد اصبح اسمه بفضل ما اخرجهُ من الشعر الغنائي البديع ، وبفضل كتابيهِ «جوتس» و«فرتر» ، حديث الاندية الادبية في المانيا بل وفي كثير من الاقطار الاوربية الاخرى واجمع الناس على انهُ قد نبغ في فرانكفورت شاعر مبدع ، بلغ من حداثتهِ شأواً بعيداً في عالم الادب . ففي تلك السنة حدث لجوته حادث غير مجرى حياته . وهذا الحادث الخطير هو التقاؤه بكارل أوجست دوق ڤيمار . كانت المقابلة الاولى بينهما في كارلسروهي Karlsruhe في ولاية بادن في اثناء رحلة

جوته الى سويسرة ، وهناك تعارفا ، ودعا الدوق جوته لزيارة ڤيمار ، ثم مر كارل اوجست بعد ذلك بفرانكفورت وهو عائد مع زوجته الشابة الى ڤيمار ، فقابل جوته مرة ثانية . واعاد الكرة بأن دعاه بالحاح لزيارته . وقد نصح مرك تلميذه بالقبول ، ولكن الوالد كان ممانعاً ، ونصح لجوته بأن الاقتراب من الامراء غير محمود العاقبة ومثل له بما جرى بين ڤلتير وفردريك الاكبر وكيف انتهت علاقتهما الى الشقاق والخصام .. وبعد تحريض والحاح قبل الوالد كارهاً ان يزور جوته ڤيمار ويقضي فيها « بضعة اسابيع » .. هذا ما اراده الوالد الشيخ ، ولكن المقادير ارادت ان يذهب جوته الى ڤيمار فيجعل منها وطنه الدائم طول الحياة ومثواه بعد الوفاة

* * *

كانت دوقية ساكس ڤيمار قسماً صغيراً من تلك الاقسام السياسية المستقلة التي كانت المانيا منقسمة اليها . وهي الآن جزء من جمهورية تورنجيا ، وڤيمار ، عاصمة الدوقية ، بلدة صغيرة على نهر الايلم ، احد روافد الإلب ، من البلدان القديمة في المانيا ذات طرقات ضيقة ، من بقايا بلدان العصور الوسطى — وكان سكان الدوقية قليلين يعيش اكثرهم من الزراعة ، وحالهم لا تختلف عن حالة الفلاحين في اوربا في العصر السابق للثورة الفرنسية . ومع ان موارد الدوقية ضئيلة جداً فانها اصبحت بفضل همة اميرها مجتمع كثير من العلماء والادباء والفنانين ، فكان بلاط ڤيمار لا يسارعهُ في هذا الا بلاط پوتسدام مع الفارق العظيم بينهما ، وهو انهُ بينما فردريك (فردريك الاكبر) لم يكن يرحب الا بالثقافة اللاتينية ، ولا يتكلم في بلاطه الا بالفرنسية ، فان الثقافة المنتشرة في بلاط ڤيمار المانية بحتة ورجالها جميعاً من الالمان. ومع ان بلاط ڤيمار فقير جداً اذا قورن ببلاط پوتسدام ، فانهُ مع هذا لم يكن دونهُ بكثير بل لقد كانت شمس العبقرية فيه من غير شك أسطع ، واثرهُ في الادب الالماني والثقافة الالمانية خيراً وابقى

كانت بلدة ڤيمار على صغرها جذابة لمن يرغب في عيشة الهدوء والطمأنينة ، والمناظر الطبيعية التي تحدق بها على درجة عظيمة من الجمال ، فمن جدولها المتدفق ومروجها اليانعة الى غاباتها المنتشرة وحديقتها الكبرى التي عني جوته بامرها عناية خاصة ، حتى جعلها من خير الحدائق واحسنها . وفوق هذا فانهُ على مقربة منها مدن شهيرة مثل يينا ذات الجامعة وايزنورت ، وكذلك جبال تورنجيا ليست بعيدة منها . والى هذه الجبال كان جوته كثيراً ما يذهب هو وكارل اوجست للتنزه والرياضة ، وقد بنى لها كوخاً صغيراً بالقرب من إلمناو لكي يبيتا فيه على اعالي الجبال

وعلى صغر هذه الدوقية وبساطتها ، فانها كانت عالماً قائماً بذاته ، فكان بها امارة وعرش وحاشية وحكومة ، وكان يؤمها من آن لآن كثير من الاشخاص ذوي الشأن . واستطاع اميرها الصغير ان يجتذب اليها عدداً كبيراً من اعلام الادب والفن والعلم وكان اهل القصر انفسهم على جانب عظيم من الثقافة . ومن اهم الافراد البارزين في هذه البيئة الدوقة الوالدة أماليا أم

كارل أوجست وصديقة فيلاند الذي تعلمت منهُ اليونانية ودرست عنيهِ الادب القديم. وكانت تحسن الموسيقى والتأليف الموسيقيّ عدا حبها للهو والمسرات — وقد رحبت بمقدم جوته وكانت تكاتب امه تباعاً. ومن اكبر المقربين اليها ويلاند Wieland من متوسطي شعراء المانيا ومن كبار أدبائها . وهو الذي تولّى تعليم كارل اوجست وتأديبه. ومن اهم نساء حاشيتها الآنسة كرونر ، قينـة القصر Hoff sangerin التي كانت تمثل الادوار الغنائية في القطع التمثيلية التي يقوم بها بعض كبار الحاشية ، وكذلك كان هنالك ادباء كثيرون نذكر من بينهم سكندُرف مترجم آلام فرتر الى الفرنسية وبرتوخ مترجم سرفانتس ، وأما هِرْدر صديق جوته واستاذه في الادب فجاء الى فيمار بعد جوته بقليل ، وقد استدعاه الدوق بناء على رجاء جوته ليكون إمامَ القصر وواعظه

اما الاميرة لويز دوقة ساكس فيمر وزوجة كارل اوجست ، فكانت تختلف عن أمها بأنها على حداثة سنها ذات طبع يميل الى الجد ، والمحافظة على التقاليد ، والبعد عن اللهو والترف . ولا تعمل الا كل ما يليق بمقامها ومركزها . وهذا بخلاف زوجها الدوق الفتى ، الذي كان ينفر من التقاليد ، ويحب اللهو والمرح وقد كان هذا احياناً سبباً في شيء من الفتور بينهما لكنهما كانا عادة على صداقة ووئام

الى هذه البيئة جاء جوته في نوفمبر سنة ١٧٧٥ وهو شاب في السادسة والعشرين وكارل اوجست فتى في الثامنة عشرة ، لكن كان الامير على حداثة سنه نافذ البصر ، يعرف كيف يقدر النبوغ وكيف يجتذب النابغين اليه . ولم يمض الا قليل حتى اصبح هو وجوته صديقين حميمين وبقيا كذلك مدى خمسين عاماً . وكانا يتخاطبان من غير كلفة ، وقد يبيتان في دار واحدة ، وفي حجرة واحدة ، ويقضيان معاً ساعات طوالاً ، يتجاذبان فيها الحديث لا عن الفن والادب فحسب ، بل وعن شؤون فيمار ووسائل اصلاحها . وقد كان كلاهما مولعاً باللهو والمرح والمجون . فكانت الاسابيع الاولى لجوته في فيمار مملوءة بأنواع العربدة واللهو البريء وغير البريء ، والفكاهات اللفظية والعملية ، يمارس كل هذا هو والدوق بروح لا تعرف المسؤولية ولا التقاليد : وكانا كثيراً ما يختلطان بالعامة من مزارعين وعمال ، وقد يقضيان الليلة في وسط مناجم إلمناو يرقصان مع بنات العمال الى سويعات الفجر

على ان هذا اللهو وان شغل جزءا عظيماً من وقتهما فانهُ لم ينسهما العناية بالشؤون العامة . والنشاط الهائل الذي امتاز به كل منهما كان مساعداً لهما على ممارسة ناحيتي الجد واللهو على السواء . وويلاند مع اعجابه بجوته والدوق ، أبدى اسفه الشديد على ان يصرف جوته وقته في هذه الترّهات ، بينما الواجب يقضي بصرفه في جلائل الاعمال . والحقيقة ان جوته لم يُخرج في السنين الاولى بفيمار مؤلفاً يستحق الذكر . ولكن يجب الا ننسى انهُ قد اكتسب تجارب كثيرة كان

لها من غير شك أثرها فيما اخرجه من الآثار فيما بعد ، وفي الغالب ان كثيراً من كتبه التي ظهرت بعد ذلك كان في هذه المدة في دور « التفريخ » فانهُ يقول في احدى رسائله انهُ رغم اعماله الكثيرة في خدمة الدوق كان لا يعدم الوقت اللازم لمتابعة دراساته الادبية والعلمية، عدا انهُ بالطبع لم ينسَ نصيبه من الدنيا

وقد عرض عليهِ دوق فيمار منصباً يعتبر في فيمار من ارفع المناصب ، يرتب ١٢٠٠ دولار اي نحو ٢٠٠ جنيه من نقود هذا الزمان . وكان هـذا مبلغاً لا يستهان به في تلك الازمنة وفي دوقية فقيرة كامارة فيمار

وتعيين جوته في هذا المنصب وجعله عضواً في المجلس الاعلى ، والحظوة الكبرى التي نالها عند كارل اوجست — كل هذا حرّك ألسنة الحاشية بالشكوى للرة ، من هذا الدخيل الذي لم يتدرج مثلهم من أصغر المناصب الى ماهو أرقى منها والذي حرمهم بلوغ المرتبة التي يطمحون اليها . ولكن كارل أوجست رد على احتجاجهم بأن وجود مثل جوته عنده شيء يحسد عليهِ . وبأن كفايته وعبقريته أمر معلوم للناس جميعاً ، وانه لا يعلم في جميع المتطلعين الى هذا المنصب من يدانيه في تلك الكفاية ، وانهُ (أي الدوق) احزم وأعقل من ان يجعل مجرد الاقدمية سبباً لحرمانه من خدمات مثل الدكتور جوته

بهذا الرد الحاسم أخرست الألسنة ، وازدادت المودة والالفة بين الدوق وبين جوته ، الذي أصبح ساعده الايمن والقيت اليهِ الآن مقاليد الكثير من الاعمال الادارية في الدوقية ومنح الدوق جوته داراً صغيرة ذات حديقة غناء على نهر الايلم (اسمها جارتنهاوس Gartenhaus) وبات بديهيًّا أن جوته قد جاء الى فيمار ليقيم بها وما دام كارل أوجست حاكمها فيهيأت ان يسمح له بالابتعاد عنها طويلاً

وهنا لا بد لنا ان نقرر ان المنصب الذي أسند الى جوته لم يكن مجرد وسيلة لابقائه في فيمار ومنحهُ مرتباً يتمكن بواسطته من متابعة دراسته وتآليفه ، لم يكن بعبارة اخرى منصباً فارغاً من غير واجبات ولا أعمال مرهقة . بل كان منصباً يقوم شاغله بأعمال جدية في الدوقية . وتأبى على جوته همته إلاّ أن يضطلع بأضعاف الاعباء التي يقوم بها صاحب ذلك المنصب عادة فان اخلاصه لكارل أوجست به وثقة كارل اوجست به كل هذا كان من شأنه ان يجعل جوته يتولى شطراً عظيماً من مهام الدوقية ، وان يرهق نفسه بالعمل من اجل صديقه ومولاه . فنراه مثلاً يقوم بادارة الفنون وبالاخص المسرح والتمثيل ، وبادارة الحربية والمالية حيث كان يضطر لان يقف في وجهِ الامير الذي يحب التبذير شأن الامراء . وبتنظيم المدينة وحدائقها ، وكثير من المشروعات التي ترمي الى اصلاح حالة الاهالي ؛ وبادارة مناجم الميناو (Ilmenau) التي كانت معطلة ، وكان هو سبب افتتاحها مرة اخرى . ويظهر ان اضطلاعه

بكل هذه الاعباء ويغيرها مما لا يمكن حصره من اعمال الدولة ، ومضافاً اليه مشاغله الادبية والعلمية والقلبية — كل هذا قد آده حمله بحيث رثى له حتى كارل اوجست وكان يقترح عليه من آن لآن ان يأخذ له قسطاً من الراحة ؛ لكن جوته لم يلتمس الراحة الا في سنة ١٧٨٦ حين سافر الى ايطاليا بعد ان قضى عشر سنوات في هذا الجد والدأب .

قلنا ان جوته في هذه السنوات العشر ، كانت له عدا أعماله الادارية ، مشاغله الادبية والعلمية والقلبية . فأما اعماله الادبية ؟ فقد كان لا ينفتأ ينظم الشعر الغنائي ويؤلف قطعاً تمثيلية من اجل مسرح فيمار . ونذكر من بين هذه القطع رواية ايفجنيا مكتوبة نثراً — وقد نظمها شعراً بعد ذلك وهو في ايطاليا — وكذلك رواية « انتصار الحساسية » « Triumph der Empfindsamkeit » . وهذه القطعة هزلة الغرض منها السخرية بالعواطف السخيفة ، وقد اضطر جوته لكتابتها لكي يقلل تأثير كتابه آلام فرتر الذي كان سبباً في حلول مصائب بكثير من ضعاف الاحلام ، وكانت تبلغ جوته أخبارهم فتتألم نفسه لذلك . واضطر أخيراً لكتابة تلك القطعة لعلها تحدث اثراً يذهب بأثر كتابه الاول

وعدا هذه القطع فان جوته من غير شك كان يعمل أو يفكر في مؤلفات اخرى تظهر فيما بعد

واما مشاغله العلمية فانهُ في هذه الفترة كان يشتغل كثيراً بالعلوم الطبيعية حتى اهتدى الى كشف عظيم في التشريح ، وهو الاهتداء الى عظم ما بين الفكين (Os Intermaxillare) وكذلك كان يدرس شيئاً عن فن البناء وتنظيم المدن وهندسة الحدائق ليطبق هذا في اصلاح فيمار وتجميلها

اما مشاغله القلبية في هذه السنين العشر فتدور حول شخص مدام فون شتاين . وهي من كبار سيدات قصر فيمار وزوجة احد كبار ضباط الحرس ولم تصح بينها وبين زوجها صلة بعد ما ولدت له سبعة اولاد . كانت شارلوت فون شتاين حين رآها جوته امرأة في الثالثة والثلاثين قد مارست الحياة حلوها ومرها . وفهمت طبائع الرجال وخصالهم . وكانت فوق هذا على جانب عظيم من الادب والثقافة العالية . وفي شخصها لقي جوته امرأة لم يرَ مثلها من قبل ؛ فان صلاته الى وقت نزوله فيمار كانت دائماً بفتيات لم يتجاوزن العشرين كان يجتذبه اليهن ما هنَّ عليه من صباحة وطلاوة وبهاء وشباب غض . لكنهن كنَّ دونهُ ثقافة وتربية وعقلاً وعلماً . أما مدام فون شتاين فكانت اكبر منهُ بسبعة اعوام ، ولكنها كانت امرأة ناضجة عقلاً وذكاءً وأدباً ، قادرة على ان تشاطره احلامه مهما بعدت ، وافكاره مهما سمت ، وتواسي جروحه ، وتعجب بقوته وترثي لضعفه ، فكانت له بمثابة الصديقة والشقيقة والحبيبة ، وبالرغم من انها لم تكن على شيء كثير من الجمال فقد اولع بها جوته ولم يفتر حبهُ طاول هذه السنوات العشر . وقد علمت — وهي سيدة العارفين — انها ان سلمت لهذا الفتى الترق بكل ما يشتهي خسرته ما يسأمها ويفقدها وتفقده ، لكنها عرفت كيف

تبقى جذوته مستمرة ملتهبة ، وكيف تستبقي حبه واجلاله لها عشر سنين طوال . وبليتوفسكي يقول ان علاقتهما بقيت طاهرة نقية ، ولو ان غيره يزعم غير ذلك . وعلى كل حال فقد كان نفوذها على جوته عظيماً وصالحاً ولم يتلاش هذا النفوذ الا بعد عودته من ايطاليا

***

كان جوته دائماً يتوق الى رؤية ايطاليا ، ولم يتحقق حلمه هذا الا في سبتمبر ١٧٨٦ حيث غادر الدوق وحاشيته وسافر متخفياً الى تلك البلاد الجميلة حيث الشمس لا تحجبها السحب وحيث الآثار الرومانية تنطق بالعظمة الخالدة . وقد اخذ يتنقل بين مدن ايطاليا المختلفة من اقصاها شمالاً الى صقلية جنوباً . وكل منها مفعم بالذكريات وبدائع الفن الخالد . لكنه كان مغرماً بروما بنوع خاص ، والذين يعرفون المدينة الابدية يفهمون سر هذا الغرام ، فهنا الفى جوته نفسه امام عظمة تلك الحضارة الماثلة التي لم ينقص مر السنين من رونقها وبهائها ووجد فيها مثيراً لوحي جديد . وكذلك وجد فرصة لأن يتعلم الدروس التي تلقنها الاسفار في بلاد تختلف عن بلاده الاختلاف كله . وعدا هذا فانهُ اصاب في ايطاليا فراغاً وسكوناً وهدوءاً وما كان اشد احتياجه اليه بعد تلك السنين المضنية

دامت هذه الرحلة نحو العشرين شهراً ، عاوده في اثنائها غرامه بالفن والتصوير ، فأضاع وقتاً كثيراً في محاولات غير مجدية ، فانهُ ما كان ولن يكون رساماً ماهراً . ولكن بجانب هذا قد اتم نظم ايفجنيا واجمونت . وشرع في نظم تاسو وهذه الثلاث من احسن رواياته التمثيلية

اجمع الكتّاب على ان رحلة ايطاليا تعتبر نقطة هامة في حياة جوته . فانها بصرف النظر عما تعلم منها اعطته فرصة طويلة لان يتبصر في امرِ نفسه وان يفكر في مآله وحياته ، وكان نزق الشباب قد اخذ في الزوال وحل محله شيء من الوقار والرزانة والنضوج ، ورأى وهو في ايطاليا انه لن يستطيع ان يعود الى تلك الحياة التي كان يحياها في فيمار ، حيث كان جانب عظيم من وقته ضائعاً في تافه الاعمال . ولهذا كتب الى كارل اوجست من ايطاليا قبيل العودة يلتمس منهُ ان يعفيه من الواجبات الصغيرة التي كانت تقيد يديه ، وتلتهم جزءاً عظيماً من وقته ، حتى يستطيع ان يفرغ للناحية الجدية من جهوده العلمية والادبية . وكان كارل اوجست عند حسن ظن جوته به ، فأعطاه سؤله ، واعفاه من رآسة المجلس الاعلى ، ومن الادارة الحربية ، واستبقى جوته بمحض رغبته ادارة الاعمال العلمية والفنية بما في ذلك ادارة المسرح

عاد جوته الى فيمار في يونيه سنة ١٧٨٨ ، وقد لاحظ الجميع في خلقه شيئاً من التغير فقد اصبح الآن جاداً وجافاً في طبعه ، متحفظاً في شيء من الفتور او البرود . لاحظت هذا التغير مدام فون شتاين ، ورأت انهُ لم يبق في قلبه نحوها تلك الحرارة وذلك الشغف اللذين التمستهما منهُ . وقد خاطبتهُ في ذلك فلم تجد المخاطبة ، ثم لامتهُ وانبتهُ فما اصلح هذا اللوم من الموقف

شيئاً . والحقيقة ان جوته ، الذي عاد من ايطاليا ، غير جوته الذي عرفته هذه السيدة ، ولو انصفت لأدركت الموقف الجديد ، وعلمت ان امامها اليوم جوته الرجل لا جوته الفتى ، وان عليها ان تعامله معاملة جديدة تتفق والموقف الجديد ، لكنها اصرت على اتهامه بالتقصير والاهمال ، وانكر هو هذه التهمة ، وبعد قليل انقلب الجفاء بينهما الى قطيعة وهجران حينما تعرف جوته الى كرستيانا فولبيوس التي صارت زوجاً له فيما بعد

* * *

في يوليو سنة ١٧٨٨ كان جوته يتمشى في حديقة فيمار فتصدت له فتاة حسناء وناولته كتاباً تلتمس فيه مساعدة اخ لها اديب بائس في بلدة يينا القريبة . هذه الفتاة هي كرستيانا فولبيوس ، التي صارت اولاً خليلة جوته ثم حليلة له . وكانت فتاة من طبقة فقيرة . والبون شاسع بين مركزها ومركزه الاجتماعي . لكنها على جانب عظيم من حسن الخَلق والخُلق ولا يعوزها الادب والتربية ، ولو انها لم تكن في هذا لتدنو الى مدام فون شتاين او غيرها من نساء البلاط . ويقال ان جوته اراد ان يتخذها زوجاً فأبت لعلمها ان هذا يحرج مركزه ، فان الحاشية لم ترضَ عن علاقة جوته بها ، وحسبت هذه العلاقة عاراً عظيماً . وقاطعتها حاشية البلاط مقاطعة تامة . ولم يقبلوا ان يروها بينهم ، فكانت لا تصحب جوته الى القصر ولا ترافقه في الحفلات ، ومع انها كانت تصاحبهُ الى يينا . فيقدمها الى اصدقائه وعارفيه ، كانت ابواب فيمار ابداً موصدة امامها . وكانت صداقتهما موضع تذمرٍ وطعن شديد في جوته لخروجه ، هذا الخروج الشنيع ، على العرف والتقاليد

ولم يلق جوته نقداً لاي عمل من اعمال حياته مثل الذي لقيه من حبه لكرستيانا . ويقول شيفر أحد مؤرخي جوته : ان الأمة لم تغفر لأكبر شعرائها هذا الخروج على العرف والعادة ، وهذه العلاقة النصف الزوجية كانت سبباً كبيراً في قلة تقدير الناس لأخلاق جوته ، وفي الحكم بأحكام قاسية عليه وعلى تآليفه . » .. الى هذا الغلو يذهب المجتمع في استهجان من يخرج على تقاليده !

وبالطبع أمام هذا النقد المر لم يستطع جوته أن يعقد زواجه رسمياً . ولكنه أعلن غير مرة أن كرستيانا زوجه في كل شيء ماعدا الرسميات . وفي أول عام ١٧٨٩ ولدت له ولده الأول أوجست . فبعد ذلك أسكنها وأمها في الدار التي يسكنها وأصبح الجميع ينظرون اليها كزوجته

لم يزل الكتّاب الذين ألفوا في سيرة جوته — وكثير ما هم — بين مستهجن وناقد ومتسامح في تقدير هذا الحادث الخطير في حياة هذا الرجل الخطير . كانت كرستيانا مليحة الصورة ، جذابة جداً ، وعاقلة ومدبرة ومغرمة به . ولكنها كانت ازاءه وضيعة النشأة قليلة التعليم . ومما يؤسف له ، من غير شك ، أن جوته لم يرتق الى زوجة تناسبه من جميع

الوجوه بحيث لا يستحي من مصاحبتها له في المجتمع الذي يعيش فيه .. ولكنه ان لم يجد فيها ضالته كلها ، فانه من غير شك وجد فيها كثيراً مما تهواه نفسه من الجمال والبساطة وطيب الخلق وسرعة الفهم . ولم يكن — وهو الذي احتقر العرف والتقاليد طول حياته — بالذي يبالي بما يقوله البلاط وأهله . وقد بقي جوته سعيداً جداً بعلاقته بها زمناً طويلاً . وكانت مساعدة له على انتاجه العلمي والادبي ، فاليها يرجع الفضل في إخراجه القصائد المعروفة باسم «المنظومات الرومانية» وهي من أبدع ما نظم .. حقيقة أنها ساءت حالها فيما بعد . ولكن لم يكن معقولاً ان يتنبأ جوته بهذا

***

في السنين التي عقبت «زواج» جوته هذا انصرف برغبة وحماسة تكادان تشبهان الجنون الى الابحاث العلمية . فأخرج رسالته القيمة في تطور النبات Metamorphosis der Pflanzen وهي من غير شك كشفٌ جديد في هذا العلم .. وأعقبها برسائل أخرى دونها في المنزلة العلمية كرسائله في البصريات والرياضيات والالوان وغيرها . وقد بقي جوته منغمساً في هذه الشهوات حتى انتشله منها شلر ووجهه بعنف نحو الادب . وقبل ان نتدرج الى ذكر اجتماعه بشلر يجب ان نشير الى الحوادث التي شغلته قبيل ذلك . في عام ١٧٩٠ سافر جوته للمرة الثانية الى ايطاليا لكي يصحب الدوقة أماليا ويرافقها في عودتها . ولم يكن لزيارته الثانية لايطاليا في نفس جوته من الأثر ما كان للزيارة الاولى . فان الرحلة كانت محدودة المدى . والاحوال مختلفة عما كانت عليه من قبل ، وعقب عودته الى فيمار كان العالم السياسي في اوروبا يموج بعضه في بعض ، فقد ثارت فرنسا ثورتها وزعزع عرش البربون ، فثار ثائر ملوك اوروبا اذ رأوا العرش تنتهك حرمته والصولجان يحطم ، والحقوق الملكية المقدسة تداس وتمتهن . عزّ هذا على أصحاب العروش . فجرد هؤلاء « الحلفاء » جيشاً ليدافع عن الحق الملكي المشروع ، تلقاء هذه الاعتداءات البذيئة من العامة والسوقة

وقد يتساءل القارئ وما لجوته وهذا كله ؟ لم يكن جوته بالرجل الذي يأبه للحقوق الملكية المقدسة ، ولم يكن يعطف على الثائرين بعد ما رأى من انتهاكهم الحرمات ، وكان أحب اليه ان يجلس في داره ليفند آراء نيوتن الرياضية ، ويحلل الألوان . ولكن لسوء حظه كان ملك بروسيا أحد الحلفاء واختار كارل أوجست قائداً لفيلق من فيالق بروسيا ، ولدوق فيمار ولع عظيم بالجيش ، كما له ولع عظيم بجوته . فطلب من جوته ان يصاحبه . وما كان جوته ليرد لكارل أوجست سؤلاً . فصاحبه في تلك الحرب وكان يقضي أكثر وقته في تجاربه العلمية يفحص العظام ويراقب الألوان ، ويدرس النبات . وكان سروره عظيماً حين تمت هزيمة « الحلفاء » لاحباً في انتصار الثائرين . ولكن حباً في العودة الى درسه وعمله ، وكتب إلى

عودته الى أحد اصدقائه يقول : « أعود الآن الى منزلي لكي ارسم من حولي دائرة محكمة لايدخلها غير الحب والصداقة والعلم والفن . ولست أشكو من الماضي فقد تعلمت منه الشيء الكثير النافع » وهكذا صمم جوته ان يكفف على اعماله الأدبية العالمية ، غير مكترث بتلك الزوابع السياسية التي تجتاح وجه اوروبا

كانت عودة جوته الى ڤيمار في اواخر سنة ١٧٩٤ ، وفي مايو من السنة التالية كان جوته في بينا ليسمع محاضرة عن النبات في دار جمعية التاريخ الطبيعي . فالتقى بعد المحاضرة بشلر ، وهو إذ ذاك استاذ التاريخ بها ، ثم تحادثا قليلاً بعد المحاضرة . ومن ذلك العهد توثقت الرابطة بينهما وازدادت صداقتهما قوة على مر السنين

ان صداقة جوته وشلر فريدة في بابها يكاد لايكون لها نظير في تاريخ الأدب لأية امة في أي عصر . ويصعب على الانسان ان يتصور شاعري المانيا العظيمين المتنافسين . وقد ارتبط قلباهما برباط الحب والإخلاص ، حتى لقد كان جوته يقول ان اسعد ظروف حياته هي التي مكنته من مقابلة شلر . ولا أوّل وهلة يخيل للمرء ان تلك الصداقة متعذرة لما بين الرجلين من الفروق : كان جوته في الخامسة والاربعين وشلر دونه بعشر سنوات . وكان جوته ربيب النعمة حليف الغنى ، قد بسم له الحظ طول عمره . بينما شلر قد نشأ في فقر وعاش في فاقة وكان دائماً في ضنك وضيق . كان جوته صحيح الجسم قوي البنية وشلر بعكس ذلك . وكان جوته يعشق الطبيعة والحقيقة أي انه ريالست (واقعي) ، بينما شلر كان يرمي بخياله بعيداً يلتمس المثل العليا اي انه ايديالست (كمالي) . وكان جوته يشتغل في اول النهار . وشلر يعمل في الظلام الى ما بعد منتصف الليل .. ثم أليس المعقول ان تتنازع شلر عواطف الحسد حين يقارن بين حال جوته وما هو فيه من بسطة في الرزق وحالته هو إذ يضطر لان يجتزي بالشيء اليسير وبينما جوته يسكن في منزلين رحبين في ڤيمار ، يكتفي شلر بغرفتين في احدى الدور الصغيرة ؟ ...

على ان هذه الاختلافات بين الشاعرين لم تقم حائلاً دون التأليف بين قلبيهما برباط من الصداقة النادرة .. وذلك لأن كلاهما كان يقدر ما للآخر من المزايا ويعجب بمواهبه ، ويجد منه فهماً وتقديراً لكل فكر وكل حس وكل بادرة تبدر منه ، ثم بعد هذا كله فقد كان يعتقدان ان لديهما رسالة جليلة يؤديانها الى العالم فهل مثل هذين يجدان من وقتهما فراغاً للتفكير في الحسد والبغضاء ؟

في عام ١٨٠٠ جاء شلر الى ڤيمار واقام بها .. وقد حاول الكثير ان يبذر شيئاً من النفور بينهما ، فأخذ الناس يتعصبون : فريق لجوته وفريق لشلر . وقد رد عليهم جوته بأنه اولى بهم ان يحمدوا الله ان لديهم شاعرين لا شاعراً واحداً . وقد حاول اهل حاشية ڤيمار بتمجيد شلر والاحتفال به ان يوغروا صدر جوته عليه . فلم يتم لهم شيء مما ارادوا . ان صداقة هذين

الرجلين قلعة حصينة لم تؤثر فيها قنابل الدسائس ولا اغارات النميمة

كانت هذه الصداقة بين الشاعرين أهم شيء في تاريخ كل منهما . فكانت تلك السنين من أسعد سني حياتهما. وكان انتاجهما عظيماً ؛ ليس له نظير في أي جزء آخر من عمرهما ؛ لا من حيث المقدار ولا من حيث الجودة . وقد كان كل منهما يقبل نصح الآخر ، فيكمل كل منهما نقص صاحبه . وعاد الى جوته نشاطه الادبي، على ما صرح بذلك في كتاب الى شلر يقول فيه : « لقد خلقتَ لي شباباً جديداً وأرجعتني مرة أخرى الى القريض بعد ان باعدتُ بيني وبينه »

بدأ هذا التعاون الادبي باصدار مجلة ادبية Die Horen ؛ وبعد ذلك أخذا ينشران مئات من الرباعيات في نقد معاصريهم واسمها Xenia . وفي سنة ١٧٩٧ أخذا يتنافسان في تأليف قصائد قصصية من النوع المعروف باسم Ballade : وجوته ولو انه يعترف بأسبقية شلر في هذا النوع من التأليف ، قد اخرج في تلك السنة تلك القصائد البديعة « عروس كورنت» والإرلكونج . في هذه الفترة أخرج شلر خير رواياته التمثيلية مثل «والنستاين » و «ماريا ستوارت» ، و «وطلم تل» . واخرج جوته « وطلم مايستر » ، و «فاوست الأول» ، وهرمان ودوروتيا. عدا كثيراً من القصائد والمقطوعات

هذا التعاون الفكري الجليل بين الشاعرين قد رفع صداقتهما الى مستوى قل أن تسمو اليه صداقة . وأصبح جوته يعتقد ان وجود شلر أمر لازم لوجوده هو . لهذا لا نعجب اذا علمنا ان قد عانه جلده ، واستولى عليه جزع شديد حينما علم بوفاة شلر في مايو سنة ١٨٠٥ وهو لم يتجاوز السادسة والاربعين .. وكتب جوته الى تسلتر يقول : « ان نصف حياتي قد بان عني » . ولم يعرف عن جوته أنهُ حزن لفقد عزيز أو موت ولد او قريب حزنه على فقد شلر : وقد بكى من اجله مُرَّ البكاء ، وهو الذي كانت تأبى عليه كبرياؤه ان يبدي جزعاً او حزناً بين ايدي الناس . وعبثاً حاول ان يجد سلواناً في الدراسة او التأليف . فأن فكره قد خمد وجذوة ذكائه قد انطفأت على أثر هذه الكارثة

في شهر اكتوبر التالي لوفاة شلر . دارت المعركة المعروفة بين نابليون واعدائه بالقرب من يينا وجاءت فرقة من الجنود الفرنسية فاحتلت ڤيمار انتقاماً من كارل أوجست لأنه ، وان لم يحارب ضد نابليون ، عاون أحد القواد بأن اقرضهُ نقوداً في وقت الحاجة وآوى بعض الجرحى من الضباط البروسيين.. وقد تصدت لنابليون الدوقة لويز ؛ وبررت موقف زوجها والتمست من نابليون ان يرأف بأهل الدوقية ولم تزل به حتى لان ، وأجلى العسكر عن ڤيمار

وقد غضب جوته أشد الغضب إذ رأى هذا الظلم موجهاً الى صديقه وسيده مع انهُ لم يقم إلاَّ بما يوجبهُ الشرف ويحتمهُ الواجب. أحسَّ جوته بأن الحال عصيبة وانه أولى به ان يضم اليه جميع اقربائه والمخلصين له . فقرر ان يعقد قرانه على كرستيانه . وتمَّ ذلك بعد معركة

بنا ببضعة أيام، بعد ان عاشرها معاشرة الزوجة سبعة عشر عاماً. وبعدما ولد له منها ولده أوجست وكان عمره وقت ازواج الرسمي ست عشرة سنة وكان جوته يخشى انه اذا حدث له شيء في تلك الازمنة الخطيرة ، فالاولى ان يترك زوجته وابنه في حال طبيعية . وبالطبع قد أثار هذا الزواج عاصفة انتقاد بين بعض أهل ڤيمار . ولكن أكثر اصدقائه هنأوه على هذه الخطوة الجيدة التي نظم بها حالهُ المنزلية . وقد هنأته امه التي كانت دائماً معجبة بكرستيانه وقد احبتها منذ البداية

بعد ذلك حسنت علاقة دوق ڤيمار بنابليون . وفي خريف سنة ١٨٠٨ كان نابليون في إرفورت على مقربة من ڤيمار . وفي يوم ٢ اكتوبر استدعى جوته اليه . ولما وصل اليه كان الامبراطور يتناول فطوره . ومعه تاليران ودارو وبعض حاشيته . فسأل جوته عن سنه وكان قد بلغ الستين فقال الامبراطور انك احسنت الاحتفاظ بقوتك . ثم اخذ يتحدث عن الأدب فانتقد كتاب محمد لڤلتير ومدح آلام فرتر وقال انه قرأها سبع مرات ثم انتقد بعض اجزائها . وانتهى الحديث بعد ان استمر ما يقرب من الساعة . وبعد ان خرج جوته التفت نابليون الى من معه وقال تلك العبارة المشهورة « Voila' un homme ! »

بعد هذه المقابلة بأيام كان نابليون في ڤيمار في حفلة اقيمت له . وتحدث طويلاً الى جوته وڤيلاند . واقترح على جوته ان يؤلف شيئاً يمثل فيه يوليوس قيصر وعظمته والخيرات الهائلة التي كان منتظراً ان يغمر بها العالم لو لم يقض عليه . وكذلك دعاه لان يزور باريس . فاظهر رغبته في ذلك ولولا تقدم سنه لنفذ هذه الرغبة من غير شك . وقبل سفر نابليون من إرفورت أنعم بنيشان اللجيون دونير على كل من ڤيلاند وجوته

في سنة ١٨٠٩ اخرج جوته قصة جديدة يصعب ترجمة عنوانها Wahlverwandschaften (قرابة الاختيار) وقد نشأت هذه القصة عن حادث جديد في حياة جوته . وهو حبه لفتاة احبها حباً هرتسليب ، متبناة لاحد اصدقائه ؛ وقد رآها وهي طفلة ونمت وكبرت امام عينيه ثم انتهى حب الطفلة الى حب الفتاة . ولكنهُ امسك نفسه وكظم حبه ، واعيدت الفتاة الى المدرسة برهة لكي تنجلي غمايته . ومقدرة جوته على ان يحب وان يبعث الحب في غيره قد لازمته طول حياته . ففي مارينباد التقى بفتاة احبها وأحبته في سنة ١٨٢١ وهو اذ ذاك قد جاوز السبعين . وقد اراد ان يتزوج منها لولا ان خشي العنت والسخرية

وفي سنة ١٨١٠ اخذ يؤلف كتابه « الحقيقة والخيال » Dichtung and Wahrheit الذي اخرجهُ في ثلاثة اجزاء وضمنه سيرة حياته من اولها . واتمام هذا الكتاب الخطير كان من اهم الاعمال التي شغلتهُ في السنين الاخيرة من عمره . في سنة ١٨١٣ حزن جوته حزناً شديداً لوفاة ڤيلاند ، ورأى عقد اصدقائه وأحبائه ينفرط جوهرة اثر جوهرة فبعد هردر قضى شلر ثم الدوقة أماليا ثم امه . والآن يذهب ڤيلاند فيزداد شعوره بالوحدة والوحشة

في عام ١٨١٣ تحالفت دول اوروبا على نابليون ، وفي اواخر السنة انهزمت الجيوش الفرنسية في معركة ليبسك وفي العام الثاني كان نابليون سجيناً في جزيرة إلبا ، وقد خسر العرش والدولة بأسرع مما احرزها .. هذه الحوادث الجليلة التي ارتجت من اجلها اوروبا ، قد كان لها أثرها في نفس جوته وفي حياته ، لكنها اثرت فيه تأثيراً خاصاً . لم يكن في صدر جوته لنابليون بغض ، بل كان يجله ويتوقع له النصر . ولم يشارك كثيرين من الألمان في بغضهم له وحقدهم عليه . فكانت نظرة جوته الى هذه الحوادث نظرة فلسفية عالية لا نظرة الوطني مدفوعاً بشعوره لوطنه . . ولهذا هاله ان يرى هذا النجم المتلألىء يسقط هذا السقوط الفجائي وهذا الطود الشامخ تتداعى اركانه وتنقض جوانبه

وهنا لابدّ لنا ان نشير الى التهمة التي اتهم بها جوته ، وهي انه كان مارقاً من دين الوطنية وانه لم يكن في قلبه عطف على المانيا . وانصافاً لجوته يجب ان نذكر القارىء بأنه كان مخلصاً اشد الاخلاص لوطنه المختار «فيمار» ، وكان حقه شديداً على نابليون من اجل غضبه على كارل اوجست الذي كان جوته يتفانى في الاخلاص له والذود عن حوضه .. اما انه لم يكن ذا شعور وطني الماني ، فليذكر القارىء ان المانيا في عصر نابليون كانت عبارة جغرافية ليس لها مغزى سياسي ، وكانت مقسمة الى مائة جزء كل منها مستقل عن الآخر ، وكان نابليون هو العامل الاكبر في إيجاد فكرة الوحدة الالمانية . فقد وحّد الالمان ببغضه ، والرغبة في التخلص من نير استعباده . فهل من العدل ان يلام جوته وهو في الستين من عمره على انه لم يستشعر البغض لمن لم يلحقه منه اذى ، ولم يظهر العطف على فكرة اوجدها هذا البغض ؟ ان جوته الذي كانت روحه عالية ، والذي قضى حياته في تأديب نفسه على ان تنظر الى الامور من ناحية عالية ، لا يجوز ان يطلب منه وهو كهل ان يثور كما يثور طلبة المدارس من اجل فكرة كان يرى ان تحقيقها بعيد

ولهذا لم يكن غريباً انه في تلك السنين العصيبة : سنين إلبا ووترلو ومؤتمر فينا تحول جوته عن اوروبا تماماً وتركها وراءه ظهرياً . والتفت يلتمس وحياً جديداً ومثاراً جديداً للخيال والشعر فأخذ يدرس أدب الشرق ، وبنوع خاص الادب الفارسي والعربي . اخذ يدرس شعر حافظ الشيرازي مترجماً الى الالمانية واخذ يستعين ببعض المستشرقين على الاستزادة من هذا البحر الفياض

وهكذا نرى جوته وهو شيخ في السادسة والستين من عمره يقبل على الدرس اقبال التلميذ ، بحماسة وحرارة تتمنى مثلهما لكل تلميذ . واخذ يدرس القرآن وكان إعجابه به لا حد له . ولسوء الحظ لم يكن جوته قد درس العربية أو الفارسية . واذا كان هذا مبلغ اعجابه بالادب الفارسي والعربي مترجمين — والترجمة تشويه لا مفرّ منه — فكيف يكون تأثره لو اتيح له قراءة تلك النصوص في اصولها ؟

كانت ثمرة هذه الجهود كتاب بديع سماه ديوان الشرق والغرب . ضمنهُ كثيراً من الصور الشرقية مرسومة بريشة غربية . وقد اضاف الى الاشعار شروحاً يصف بها حالة الشرق وتاريخه مما يعين القارئ على تفهم ما جاء في الديوان . وهذا الكتاب ، ولو انهُ يشتمل على قصائد من ابلغ ما جادت به قريحة جوته ، فانهُ ليس من كتبه الشائعة المتداولة ، نظراً لان معانيه يحيط بها عادة غشاء من الغموض ، فالكتاب اذن للخاصة لا للعامة شأنه في هذا كشأن الجزء الثاني من فوست

* * *

ولقد متع الله جوته بعمر طويل . وكانت السنين الاخيرة كلها هدوء وسكون . فقد خفت عنهُ اعباء اعماله الرسمية . وكان يقضي معظم وقته في منزله ، الذي اصبح حقيقة كعبة القاصدين يحج اليها الراغبون في رؤية الشيخ الوقور ، ولقد كان جوته في كهولته على شيء كثير من الهيبة وهنري هاينه بظرفه المعهود يقول لنا انهُ كان يؤلف الجمل التي يريد ان يقولها ! حتى اذا كان في حضرة المشترى (جوته) لم يحر كلاماً ، اللهم الا عبارة ، قالها في ارتباك وحياء ، عن شجيرات البرقوق التي رآها في طريقه بين بينا وفيمار . . .

وكان الزائرون من جميع الطبقات . فمنهم الامراء والوزراء ألمان وغير المان ، كانوا يحضرون في صحبة دوق فيمار . ومنهم الادباء والشعراء امثال هاينه وتاكرى . ومنهم ايضاً الفضوليون الذين لا تخلو ديار كبار الناس منهم . على ان حياة جوته اذ ذاك لم تكن مجرد زيارات وحفلات بل لقد كانت حافلة بنشاط كثير . فقد اتم في هذه السنين الاخيرة الجزء الثاني من كتاب ولهلم مايستر وكتاب الحقيقة والخيال . والكتاب الثاني من فوست . وهذا الاخير لم يتم تأليفه الا في سنة ١٨٣١ . . وهو معتبر عند الخاصة اجل شيء كتبهُ جوته . وقد اوصى الشاعر بألا ينشر الا بعد وفاته ، ولهذا بقي في يده الى آخر لحظة يزيد فيه ويعدل فيه ما شاء . والى الاسبوع الاخير من حياته كان جوته يكتب او يملي الرسائل الادبية والعلمية ويتعقب سير التفكير العلمي في المانيا وفي اوربا بكل يقظة وانتباه

وكان حافظاً لكل قواه الى النهاية ، وبرغم ضعف سمعه . قد بقي نظره صحيحاً سليماً

* * *

كانت دار جوته في شيء من الوحدة ، ولكن تحسنت هذه الحال في عام ١٨١٧ اذ تزوج ولده أوجست من فتاة من اذكى فتيات فيمار اسمها أوتليا . ولكن السرور بهذا الزواج قد شابه وفاة زوجه كرستيانه في العام التالي . وقد كان حزنه عليها شديداً . ومن رزق عمراً طويلاً كعمر جوته لا بد ان يعاني مرارة فقد الاصدقاء والاحباب . ففي عام ١٨٢٧ ماتت مدام فون شتاين . وفي يونيو ١٨٢٨ مات الصديق الاكبر كارل أوجست ، وصاح جوته

اذ بلغه نعيه : الآن قد ضاع كل شيء « Nun ist alles vorbe » وفي فبراير سنة ١٨٣٠ ماتت دوقة فيمار وفي اكتوبر توفي ولده أوجست وهو في ايطاليا . وكان موته ضربة أليمة . وبعد وفاته جاءت زوجته أوتليا بأطفالها وأقامت في دار جوته . فكان له من وجودهم بعض السلوان . في وقت بات فيه حقيقة وحيداً بعد ان درج أصدقاؤه واقرانه

* * *

في اغسطس سنة ١٨٣١ كانت الحفلات قد اعدت من اجل عيد ميلاد رجل ألمانيا الاكبر . وفراراً من هذه الحفلات ذهب جوته الى إلمناو ليقضي مدة يسيرة ريثما تنتهي الضجة . وحين وصل الى تلك البلدة صعد الى المرتفعات المجاورة ونزل بالكوخ الصغير الذي قضى فيه مع اصدقائه اياماً سعيدة . وحين دخل الى الكوخ رأى مكتوباً على جدرانه سطوراً قد خطها هو بقلمه منذ سنين عديدة وهي :

Ueber alle Gipfeln
Ist Ruh,
In allen Wipfeln
Spürest Du
Kaum einen Hauch;
Die Vögelein schweigen im Walde
Warte nur, balde
Ruhest du auch.

وهي ابيات لا بد ان تقرأ وتفهم في لغتها الاصلية ، ومع ذلك فانا نعالج ترجمتها في شيء كثير من التردد

في ذُرى الأطوادِ صمتٌ شاملٌ
وسكونٌ غشيَ الكونَ الفسيحْ ..
خيّمَ الصّمتُ على الغابِ ، فلا
صوتُ طيرٍ فيهِ او نسمةُ ريحْ .
كلُّ شيءٍ مستريحٌ هادئٌ
وقريباً انتَ ايضاً تستريحْ

طالع جوته هذه السطور ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، دموع أثارتها ذكراه لاحبابه واصحابه : ولايام فتوته وشبابه ، فأطرق مليًّا وردّد السطر الاخير «وقريباً انت ايضاً تستريح»

وحقيقة كانت النهاية قد اقتربت ففي ظهر اليوم الثاني والعشرين من مارس ١٨٣٢ قضى نحبه في داره بفيمار بعد ان لازم الفراش أياماً قلائل : وقد دفن الى جنب صديقه الخالد شلر